صورة الأنا والآخر في رواية الأزمان المظلمة لطالب عمران

The image of the Ego and the Other in the Dark Times by Talib Umran

أحمدرضا صاعدي [1] ، هدى موسوي [2]

1–جامعة أصفهان (ايران)/mousavi.hoda60@gmail.com

2– جامعة أصفهان (ايران) / a.saedi@fgn.ui.ac.ir

تاريخ الاستلام: 2022/07/07 تاريخ القبول: 2022/12/22 تاريخ النشر: 2022/12/31

ملخص: رواية الأزمان المظلمة لطالب عمران، انتشرت بعد أحداث الحادي عشر سبتمبر 2001م وتجلت فيها صورة الأنا العربية المسلمة والآخر الأمريكي. يقدم هذا البحث ضمن المنهج الوصفي–التحليلي قراءة في الرواية المذكورة ويهدف إلى الكشف عن صورة الأنا العربية المسلمة والآخر الأمريكي. تدل النتائج على أن الأحداث التي كان يمر بها العالم، حفزت الكاتب على انتشار الرواية وشكلت صورة سلبية بالنسبة للآخر الأمريكي فيها.

الكلمات المفتاحية: صورولوجيا، الأنا، الآخر، تمثيل، الأزمان المظلمة .

Abstract: The Dark Times novel was published by Talib Umran after the events of September 11, 2001.and the image of the Arab Muslim ego and the American other was manifested in it. This research presents, within the descriptive and analytical method, a reading of the mentioned novel and aims to reveal the image of the Arab Muslim ego and the American other in it. The results indicate that the author published his novel influenced by the events that the world was going through, and formed a negative image for the American other.

Keywords: Imagologie, The ego, The other, Representation, Dark Times

المولف المرسل: أحمد رضا صاعدي

الاميل :a.saedi@fgn.ui.ac.ir

صورة الأنا والآخر في رواية الأزمان المظلمة لطالب عمران

مقدمة:

تتدرج الصورولوجيا ضمن الأدب المقارن وترجع بداياتها إلى القرن التاسع عشر. تهتم هذه الدراسة بمعرفة الصورة الذهنية التي يشكلها شخص عن نفسه وعن الآخرين. "وبهذا يمهد الأدب المقارن لكل أمة أن تعرف مكانتها لدى غيرها من الأمم، وأن ترى صورتها في مرآة غيرها من آداب الشعوب ويتاح بذلك لها أن تعرف نفسها حق المعرفة، وأن تحاول تصحيح وضعها أو الدفاع عن نفسها. وبذلك تتهيأ الفرصة للتفاهم الحق والتعاون الصادق بين الشعوب."[1] إذن تحظى دراسة الصورة باهتمام كبير في الدراسات الأدبية العالمية، نظراً لأهميتها في العلاقات بين الأمم والشعوب. وكما تتحكم عوامل متعددة في بلورة العلاقة مع الآخر كالعوامل التاريخية والقومية والثقافية، كذلك "تسهم تلك العوامل في رسم صورة أو صور له تبدو أحياناً متناقضة، ويرجع ذلك فيما يرجع إلى اللحظة التاريخية، التي تفرض على الذات أن تحدّد طبيعة تلك العلاقة وتوجّه مسارها."[2]

كانت هجمات الحادي عشر سبتمبر 2001م، من أكثر الأحداث التاريخية فعالية في هذا الصدد والتي وجد بعدها العالم الإسلامي نفسه، عرضة لهجمات الحروب من جهة، وعرضة لهجمات الإتهام بأنه إرهابي من جهة أخرى؛ فخلق لديه شعوراً أدّى إلى تكوين صورة أو صور كان لها صدى وسيع في عالم الأدب ولاسيّما الرواية العربية. يقدّم هذا البحث قراءة لإحدى هذه الروايات. رواية الأزمان المظلمة للكاتب السوري، طالب عمران. انتشرت عام 2003م، أي بعد هجمات الحادي عشر سبتمبر2001م على برجي التجارة في الولايات المتحدة وما تلتها من حروب ودمار في العالم.

لقد شكّل مفهوم الأنا والآخر حضوراً قوياً في رواية الأزمان المظلمة، حيث عمد الروائي إلى ترسيم صورة الآخر الأمريكي والأنا العربية المسلمة، بأسلوب مؤثر ومثير. وهذا ما يجعلنا نطرح العديد من الأسئلة، من أهمها: هل أثرت العوامل التاريخية والسياسية على صورة الآخر الأمريكي من منظور الكاتب العربي وكيف تم تصويرها في رواية الأزمان المظلمة؟ و كذلك

كيف تم تصوير الأنا العربية في الرواية المذكورة؟ وللإجابة على هذه الأسئلة قمنا بتحليل صورة الأنا والآخر في الرواية المذكورة ضمن المنهج الوصفي–التحليلي والهدف المنشود هو الكشف عن الربط بين الواقع التاريخي والسياسي وبين الصورة التي تجلت في الرواية و كيفية تقديم الصورة فيها.

– فرضيات البحث:

1– تأثرت صورة الأمريكي من منظور الأنا العربية المسلمة في رواية *الأزمان المظلمة* بالعوامل التاريخية والسياسية، فبرزت بصورة سلبية معادية.

2–نتيجة للتشويه الذي حصل للأنا العربية المسلمة من قبل الآخر الأمريكي، أصبحت عند الكاتب نظرة استعلائية ايجابية بالنسبة للأنا.

–خلفية البحث:

من خلال البحث في مجال الصورولوجيا يتبيّن للباحث أن هناك دراسات كثيرة تم انجازها في هذا المجال، وبما أن تجري هذه الدراسة على الرواية وبالذات حول الآخر الأمريكي، نشير هنا إلى بعض الدراسات الصورولوجية التى سلطت الضوء في هذا المجال والإشارة تكون إلى أهمها:

1. "الذات والآخر في الرواية السورية" (2019) لإبراهيم خليل الشبلي؛ كتاب يهدف إلى اختبار فاعلية الخطاب الروائي السوري والروايات المدروسة تعود إلى الفترة الممتدة من عام 2000 إلى 2010. المنهج الذي سار عليه البحث، منهج وصفي يقوم على أدوات من أهمها التحليل والمقارنة، كما أنه يستفيد من آليات تحليل الخطاب الروائي مثل: الزمان، والمكان، والشخصية، والحوار، والسرد، ووجهة النظر؛ ليرصد أشكال تمثيل الآخر في الرواية السورية.

2. "إشكالية الأنا والآخر في روايات ياسمينة خضرا" (2020) مقالة لسامية غشّير وعقيلة شنيقل؛ تطرّق البحث فيها إلى علاقة الأنا والآخر وأبعادها ودلالاتها في روايات ياسمينة

خضرا، كما يتم ذلك في دراسة الأنا الجزائري والآخر الفرنسي في رواية "فضل الليل على النهار"، والأنا الفلسطيني والآخر الصهيوني في رواية "الصدمة"، والأنا العراقي والآخر الأمريكي في رواية "أشباح الجحيم" واستجلاء مظاهر الصراع الحضاري، وأزمة الهوية والإغتراب، ومأساة العراق وصور المقاومة في كلّ منهم.

3. "صورة الأنا والآخر في رواية وحدها شجرة الرمان لسنان أنطون" (1442هـ.ق) مقالة لأياد موسوي وعلي نظري؛ لقد تطرّق البحث فيها إلى صور الأنا والآخر بجميع أنواعهما عن طريق استقراء الرواية المذكورة ودلّت النتائج على أنّ الأنا للروائي برزت بصورة الأنا الشيعية والأنا العراقية كما أنّ الآخر ظهر بصورة الآخر الإيراني والآخر البعثي والآخر الأمريكي والآخر الإرهابي.

4. كذلك أطروحة "بناء الشخصيات في روايات الخيال العلمي في الأدب العربي" لعصام عساقلة وهي أطروحة دكتوراه تطرّق فيها الباحث إلى الأساليب أو التّكنيكات، التي وظفها كتّاب الخيال العلمي في بناء الشخصيات. وذلك بعد تعريف للشخصية واستعراض تاريخي لأهم المدارس الأدبية التي شكلت الرؤية النقدية لمفهوم الشخصية الروائية. تقتصر الدراسة على ثلاث روايات من أدب الخيال العلمي: رواية السيد من حقل السبانخ (1987) لصبري موسى، رواية قاهر الزمن (1994) لنهاد شريف ورواية الأزمان المظلمة (2003) لطالب عمران، إلّا أنها تعطى صورة عامة عن الأساليب التي يوظفها مؤلف القصة العلمية وتساعد في تقصي المراحل التي يمرّ بها، حتى يبني شخصياته لتصل إلى صورة متكاملة ومتماسكة. كتبت دراسات ورسائل كثيرة حول الأنا والآخر في الأدب الحديث، فلم يتطرق أحد إلى رواية الأزمان المظلمة من هذا الجانب، على حد علمنا، ودراستنا هذه جاءت لتسلط الضوء على صورة الأنا والآخر في الرواية المذكورة. والجديد في هذا البحث هو ربط الوقائع التاريخية والسياسية فيما بعد الهجمات الحادي عشر سبتمبر 2001م بدراسة الآخر الأمريكي في الرواية المذكورة.

أولاً : الإطار النظري :

1 – الصورولوجيا:

تعد دراسات الصورة من أهم فروع الأدب المقارن الذي يهتم غالبا بدراسة التأثير والتأثر في ثقافات العالم."لقد بدأت هذه الدراسة مع جان مارى كاريه، ثم أخذها ماريو–فرانسوا غويار ودافع عنها، ونشرها في الفصل الأخير من كتابه الصغير ضمن سلسلة (كوسيج – ماذا أعرف؟) عام (1915): "الأجنبي مثلما نراه"."[3] ومن المؤلفين في هذا المجال أيضا يذكر اسم طوني موريسون؛ تقول موريسون في كتابها *صورة الآخر في الخيال الأدبي*: "إن قدرة الكتاب على تخيل ما ليس هو ذاته، وقدرتهم على أن يجعلوا الشيء الغريب يبدوا معتادا والشيء المعتاد يبدوا غريبا، تمثل مقياس قوتهم. ولعلّ اللغات التي يستخدمونها والسياق الإجتماعي والتاريخي الذي تحظى فيه هذه اللغات بمعنى من المعاني، تمثل تجليات مباشرة وغير مباشرة لهذه القوة وحدودها."[4] ما تدرسه الصورولوجيا المقارنة هي "تلك العلاقة التي يقيمها الكاتب المبدع ببلد ما أو بمجموعة من البلدان الأجنبية، واستجلاء تلك المواطن في مخيال الكاتب المبدع. كما تدرس مختلف الحجج التي يستخدمها المبدع في الحكم على تلك البلدان الأجنبية من خلال منظوره الذاتي الخاص."[5]

إن الأنا حين تنظر إلى الآخر تقوم بإجراء مقارنة ويؤدى الشعور الناتج عن هذه المقارنة إلى تكوين صورة. كما يرى باجو أن "كل صورة تنبثق عن إحساس، مهما كان ضئيلاً (بالأنا) بالمقارنة مع الآخر، و(بهنا) بالمقارنة مع مكان آخر."[6] فتقوم الأنا بانتقال صورة الآخر؛ لكنها لاتنقل صورته فقط، إنها تنقل صورتها الذاتية أيضا، "إذ نجد في صورة الآخر مجموعة من القيم والأفكار التي نؤمن بها، كما نلمح فيها مجموعة العلاقات التي تقيمها مع العالم، لذلك يكاد يكون من المستحيل تجنب ألا تظهر الصورة (المقدمة عن الآخر) في هيئة نفي له، سواء أكانت الصورة مقدمة على المستوى الفردي من قبل الكاتب أم على المستوى الجماعي من قبل الأمة، إذ يتم التعبير عن الآخر بنفيه ليتم التعبير عن الذات!!"[7]

فالصورة عن الآخر هي في الوقت نفسه أداة للكشف عن أنا، وهي إذن " لغة ثانية، لغة من بين لغات أخرى يتوفر عليها المجتمع ليتحدث عن نفسه ويفكر في نفسه. الصورة لغة من بين اللغات الرمزية، ولكنها لغة متميزة تتمثل وظيفتها في قول العلاقات الإثنية والثقافة البينية، وهي علاقات ليست حقيقية بقدر ما هي متصورة، أعاد المخيال تشكيلها بين المجتمع الذى يتكلم (الناظر) والمجتمع المنظور اليه."[8] ومن هنا تأتي أهمية دارسة الصورة في "أنه يكشف الخصائص العميقة لهذه الأمة في أعين أبنائها، والمكونات الأهم لهويتها، لأنهم إنما يتناولون الآخر ويتحدثون عنه بإبراز الجوانب التي يرون أنه يخالفهم فيها."[9]

أما وسائل التمثيل فهي متعددة "ولكن أبرزها وأخطرها، الكتابة والقول، أي الكتابة عن هذا الآخر بالنيابة عنه، والتكلم باسمه، وهو ما يعنى مصادرة تاريخ هذا الآخر وثقافته وحقه الطبيعي في الحديث عن نفسه أو في تمثيل ذاته بذاته."[10] وفي ما يتعلق بالعوامل المؤثرة في تشكيل الصورة، يقول محمد غنيمي هلال: "إن العوامل النفسية والاجتماعية تتظافر لخلق العناصر الهامة والأفكار العامة التي تلعب دورها في تكوين عقيدة شعب في شعب آخر. فتصبغها بصبغتها حتى تتكون، ثم تساعد على رواجها لدى ذلك الشعب. وقد تتغير تبعاً لتلك العوامل الصور الأدبية لتلك الشعوب إلى ما هو خير من الصور السابقة أو إلى ما هو شرّ منها."[11] لذلك يرى بيشوا أن الصورة هي "تمثيل فردي أو جماعي، يدخل فيها في وقت واحد– عناصر ثقافية وتأثيرية، موضوعية وذاتية. فلا يمكن لأي أجنبي أن يرى بلدا كما يريد أهله أن يراه، بمعنى أن العناصر التأثيرية، تفوق العناصر الموضوعية."[12]

يبدو أن الصورة التي تتشكل في مخيلة شعب عن شعب آخر ليست بالضرورة واقعية وصحيحة، بل إنها أقرب للخطأ منها للصواب "نظراً للتعميم التي تتسم به ولدور الظروف التاريخية التي يغلب عليها التنافس والحروب في صناعتها وصياغتها. ومن هنا كثر استخدام مفهوم الصورة النمطية باعتبار أن أكثر ما تختزنه الذاكرة الجماعية عن الآخر المختلف يميل إلى السلبية والمبالغة ويعتمد في كثير منه على القصص والأخبار والإشاعات التي قد لايكون لها نصيب من الصحة."[13] والصورة النمطية، هي "القالب أو الكليشي، والمصطلح، في

الأصل مصطلح خاص بالطباعة (وهو لوحة معدنية) . ومعناه في الأدب والنقد، هو فكرة (أو رأي قائم) يتم قبولها دون تفكير، وتتكرر دون أن نقوم بعرضها على الفحص النقدي، من قبل شخص أو مجموعة من الأشخاص، والتي تحدد، إلى درجة ما، كبيرة أو قليلة، طرقه في التفكير، والشعور والعمل. وفي حال العنصرية فإن الصورة النمطية تمنع من التفكير، والتبرير."[14]

نظراً إلى أن كل صورة كاذبة بالضرورة، بوصفها تقديما لبعض الحقائق وتحويلاً لها إلى كلمات، يرى باجو أن "مفهوم دراسة الصورة لاينحصر فقط بدراسة درجة تزييف الصورة، مثلما يطرح الآن احياناً، ولاينحصر كذلك بدراسة الانتقالات الأدبية لما يسمى، للسهولة، واقعاً، ويجب أن ينفتح على دراسة مختلف الصور التى تشكل، في لحظة معينة، تقديم الأجنبي، وعلى دراسة خطوط القوة التى تحكم مجتمعاً، ومنظومته الأدبية، وخياله الاجتماعي."[15]

2- الأنا والآخر:

إن مفهوم الأنا يعني "الذات الواعية، وقد يستخدم المصطلح ليشير الى تلك السمة أو ذلك المكون من مكونات الشخصية الذى يسيطر بأكثر الطرق مباشرة وفورية على الفكر والسلوك، فهو "الأنا" التى تشعر وتفكر وتميز الشخص عن الذوات الشخصية الأخرى."[16] وفي هذا التمييز، تتأثر الأنا بكيفية نظرتها إلى الآخر؛ "لأنها تدرك نفسها بفضل العلاقة مع الآخر، فالذات تتشكل ويعاد تشكيلها في المواجهة مع الآخر، لذلك فإن أي تشويه في النظرة إلى الآخر لابدّ أن يعني تشويهاً كامناً في الذات."[17]

أما الآخر فهو كائن مختلف عن الذات، "وهو مفهوم نسبي ومتحرك؛ ذلك أن الآخر لايتحدّد إلّا بالقياس إلى نقطة مركزية هي الذات، وهذه النقطة المركزية ليست ثابتة بصورة مطلقة، فقد يتحدّد الآخر بالقياس إليّ كفرد، أو إلى جماعة معينة قد تكون داخلية كالنساء بالقياس إلى الرجال، والفقراء بالقياس إلى الأغنياء، أو خارجية بالقياس إلى المجتمع بصورة أعم."[18] كما تتحدّد نوعية العلاقة بين الأنا والآخر حسب الغيرية التي تقع أمام الذات فمثلاً

"الغيرية الأخرى التي تواجه الأنا، والمختلفة عنها دينياً، وحضارياً، ولغوياً؛ مما يعرضهما لعلاقة ثنائية ضدية قد تكون تارة ايجابية، وقد تكون تارة أخرى سلبية. ومن ثمّ، تنبني هذه العلاقة المزدوجة إما على أساس الصداقة والمحبة والتعايش والأخوة، وإما على أساس العدوان والصراع الجدلي والتغريب والإقصاء."[19]

إذن "قد ساد الآخر كمصطلح في دراسات الخطاب، سواء الاستعماري(الكولونيالي) أو مابعد الاستعماري وكل ما يستثمر أطروحاتها مثل النقد النسوي والدراسات الثقافية والاستشراق."[20] مما أدّى إلى تشكيل جدلية الأنا والآخر؛ و"هو الصراع بين الجديد والقديم على مستوى الحضارات وفي مسار التاريخ، يحدث عند كل شعب، وعلى مستوى الدوائر الحضارية الكبرى. فإذا كان الغرب هو الأنا فإن الشرق بالنسبة اليه هو الآخر. والعكس بالعكس، إذا كان الشرق هو الأنا فالغرب هو الآخر بالنسبة اليه. وإذا كان العالم الثالث هو الأنا كان الشرق والغرب على السواء هما الآخر بالنسبة له. وإذا كان الشرق والغرب أي العالم المتقدم المتنافس ذو النظامين المختلفين: الاشتراكية والرأسمالية هو الأنا فإن شعوب العالم الثالث التى تود كل كتلة جذبها اليها هو الآخر."[21]

إدوارد سعيد من المنظرين الذين توسعوا في هذا المجال وفي كتابه *الاستشراق* بيّن مفهوم "الآخر" بطريقة جديدة وهو يرى "أن الثقافة تكون قادرة على التمثيل حين تملك القوة ووسائل فرض الهيمنة، ويكون لسان حال هذه الثقافة هو: "نحن نسيطر لأننا نملك القوة (الصناعية، والتقنوية، والعسكرية، و(الأخلاقية)؛ وهم لايملكونها، ولذلك فهم ليسوا مسيطرين؛ إنهم دنيّون ونحن فوقيّون."[22] كذلك يرى أن الغرب من خلال وضع الشرق فى موقع "الآخر" وفي مكانة أدنى، يكون قد رسخ مكانته فى موقع أعلى ووفر لنفسه وسائل الهيمنة والسيطرة على الشرق. ويذكر أن الاستشراق "في ذاته إرادة معينة أو نية معينة، أي إنه ليس مجرد تعبير عن الإرادة والنيّة، لتفهم ما يبدو بوضوح عالماً مختلفاً (أو عالما آخرا و جديدا) وللسيطرة عليه في بعض الأحيان والتلاعب به وضمّه إليه."[23]

ثانياً : تجليات الأنا و الآخر في رواية الأزمان المظلمة:

1 – ملخص الرواية:

رواية الأزمان المظلمة تأليف طالب عمران، الأديب والمؤلف السوري. تبدأ القصة في المطار؛ يرجع الدكتور قاسم إلى وطنه بعد عشر سنوات من الغربة، وهو يحمل أعلى الشهادات العلمية، بعد أن قدم إنجازات كبيرة في الجامعات ومراكز البحوث في الدولة المتطورة التي كان يعمل فيها. وبمجرد وصوله تم اختطافه من قبل المنظمة الأخطبوطية "بناؤون الأحرار"، وفّرت له المنظمة جميع أنواع التسهيلات والرفاهية، وفي المقابل كانت تلزمه بالقيام بأنشطة كالقتل والقصف وتلويث المياه وما إلى ذلك، بينما كان يُقال له أن كل الأعمال التي يتم تنفيذها من قبل المنظمة، هي أعمال إنسانية وتكون لخدمة الناس. توفّيت والدة الدكتور قاسم بسبب تلوّث المياه؛ منها وبعد اكتشاف حقيقة المنظمة، قرر الدكتور قاسم أن يهرب، لكنه لم يفلح بهذا القرار، وبعد القبض عليه ومحاكمته في المحكمة، أصدر القاضي أمراً قضائياً بإلباسه اللباس الأحمر وانتقاله إلى خليج غوانتانامو، مركز إعتقال الإرهابيين.

أما في النهاية إستطاع الهروب وذلك بمساعدة جندي كان يعرفه من زمان، وطبيب تعرف على مكانة الدكتور قاسم العلمية. تزامناً مع قصة الدكتور قاسم، يروي الراوي أحداثاً تجري في المستقبل عبر أحلام يراها الدكتور هاني، زوج زهرة، أخت قاسم، ويزامن أحلامه مع الأحداث التي تدور حوله. عوني كان يعاني من مرض ونجا من موت محقق إثر عملية جراحية أجراها الدكتور هاني. عايدة أخت زوجة عوني تزوجت ضابطاً كهلاً، وبعد وفاة الضابط، تزوجت ولي العهد الذي كان عقيماً، فطلب زوجها من هاني أن يقوم بدور مؤقت لحلّ مشكلة الإنجاب ويجامع الملكة. أعطى هاني موافقته تحت ضغط الإبتزاز المرعب، لكن بعد أن تم الإنتهاء من طلب ولي العهد، قتل الدكتور وزوجته.

2 –صورة الآخر في الرواية:

الرواية العربية تحمل عناوين مختلفة للآخر الذي صورته على مرّ الزمان. ومنذ القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا تجلت فيها مجموعة من الصور والرؤى تجاه الآخر كـ"النظرة الإنبهارية الإيجابية بتفوق الإنسان الغربي حضارياً، وثقافياً، وعلمياً، وتقنياً، وسياسياً، وحقوقياً؛ والنظرة القيمية الأخلاقية السلبية من قبل الأنا الملاحظة بكون الحضارة الغربية، حضارة مادية، إباحية، لاتهتم بالقيم والشرائع والروحانيات. كما أن هذه الحضارة تحمل في طياتها نزعة استعمارية عدوانية قائمة على التغريب، والتهجير، والإقصاء."[24]

أما رواية *الأزمان المظلمة*، فهي نشرت عام 2003 م، أي بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول سنة 2001م، على برجي منظمة التجارة العالمية في الولايات المتحدة، وما تبعتها من حروب ودمار على دولة أفغانستان والعراق بحجة القضاء على الإرهاب. فمن الطبيعي أن تكون هذه الحوادث هي الحافز على انتشار الرواية، بل هي السبب الرئيس في ترسيم صورة سلبية للآخر الأمريكي. لذا لا يرى القارئ فيها إلّا صورة ظالمة، وقاسية، وقاتلة، تحبّ السلطة، والتملك، واستعباد الشعوب والتي يصفها الكاتب من أقذر حكومات الكوكب في قوله: "شعر في نهايته أن له عائلة أخرى في هذا البلد الذي تعد حكومته من أقذر حكومات الكوكب، وهي التي تستعبد الناس والحكومات الأخرى في ابتزاز اقتصادي منقطع النظير."[25] وكما يلاحظ أن الطبيب الأمريكي، دكتور بيتر، وجون، الجندي الأمريكي، يخاطران بحياتهما لإنقاذ حياة قاسم ومساعدته في الهروب من غوانتانامو، مما يجعله يشعر بأنهما قريبين إليه وهما عائلته في ذلك البلد. فالمفهوم من سياق الرواية أن الكاتب يفرّق ما بين الحكومة الأمريكية وشعبها ولا يراهما على حدّ سواء.

2-1- الآخر السلطوي :

السلطوية هي أكثر صورة برزت في الرواية وبأشكال مختلفة. يلاحظ أن المؤلف لايذكر اسم البلد الذي يصوره، أي أمريكا، في أي مكان من الرواية إلّا وذكره بعناوين كـ "القوة

العظمى"، و"القوة الوحيدة"، و"سيدة العالم"، و"حاكمة العالم" وغيرها من الألفاظ التي تدلّ على سلطوية الآخر وتأكيد على هيمنته على العالم. يقول سعيد في هذا السياق: "منذ بداية القرن التاسع عشر وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية كانت لفرنسا وبريطانيا السيطرة على الشرق والاستشراق، وأما منذ انتهاء هذه الحرب فأميركا هي التي تسيطر على الشرق وتتبع في ذلك المنهج الذي كانت تتبعه فرنسا وبريطانيا ذات يوم."[26]

كما يحكي عمران قصة تحول أمريكا إلى القوة العظمى وظهور نظام أحادي القطب من قلب انهيار النظام القائم على التنافس العدائي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي في روايته قائلاً: "حتى التسعينيات من القرن الماضي كانت هناك قوتان كبيرتان القوة العظمى الآن، والقوة الأخرى في الدول ذات المجتمعات المتساوية كما كانت تسمى، ونتيجة تخطيط استراتيجي بعيد المدى اخترقت هذه القوة الأخرى من جواسيس وعملاء وتنظيمات البنائين الأحرار، فنسفت من جذورها وانهارت.. ولم يعد لها وجود، اخترقت أولاً بالرأس الذي فككها، ثم برأس آخر باع ممتلكاتها، ثم برأس آخر باع قوتها النووية."[27]

إذن يرى الروائي أن الحكومة الأمريكية هي التي تسببت في انهيار الإتحاد السوفيتي وذلك نتيجة تخطيط استراتيجي بعيد المدى؛ "وفي ظل انهيار الإتحاد السوفيتي، أصبحت للولايات المتحدة مكانة متميزة في العالم."[28] وهذا ما يؤكده في قوله: "إن القوة العظمى برزت على الساحة الدولية منذ قرن و أكثر، وبعد أن نمت وتعاظمت قوتها بعد الحربين نتيجة تخطيط مدروس واستراتيجية متكاملة، أصبحت الآن سيدة العالم، كل القوى الأخرى تتبري تحت ظلها مهما كانت، وبسبب ذكاء المخططين فيها، أحدثت خروقات كبيرة في القوة الأخرى فأضعفتها ووضعتها في ظلّها كما قلت.. فمن الطبيعي أن تظل لها السيادة في السنوات المقبلة." [29]

يذكر هاروى في كتابه *الامبريالية الجديدة* "أن الامبريالية الأروبية التجأت إلى العنصرية لتخفيف التوتر بين القومية والامبريالية، أمّا الولايات المتحدة سعت لإخفاء طموحاتها في الهيمنة تحت ستار العالمية المجردة."[30] لكن نجد أن عمران يرى ما في تحت هذا الستار

ويسعى جاهدا لإزالته أمام عيني القارئ ليشاهد أن حاكمة العالم، حسب تعبيره، مهووسة باستعباد الشعوب وتريد التسلط على مقدرة الناس وذلك في قوله: "لاأدري ما الذي يشغل فكر هؤلاء الذين ينتقمون من البشرية بشكل غير مفهوم بل إنه حبّ السيطرة والتملك، ونزعة استعباد الناس والتسلط على مقدراتهم، ليعيش بعض وتمشي الغالبية على هامش خط الحياة."[31]

ولكي يدرك القارئ مدى سلطوية الآخر وفرض هيمنته، يبين الكاتب أن الآخر يفرض هيمنته بشتى الطرق، أي بالقهر، والقتل والحصار الاقتصادي معبراً عنها بهذه العبارات: "نعم.. بعد الحادي عشر من الشهر التاسع، ابتزّت القوة العظمى العالم.. وبدأت تفرض هيمنتها على الجميع بالحديد والنار والحصار الاقتصادي."[32] وأن القوة العظمى تملك خبراء في أي منهم."القوة العظمى الآن هي سيدة العالم، تملك خبراء في تحطيم ثورات الشعوب، خبراء في الحصار الاقتصادي.. خبراء في القتل المنظم المدروس لكل أعدائها."[33]

2-2- الآخر القاسي :

يبدو أن الروائي يبالغ في تضخيم صورة قساوة "الآخر" وإظهار شدة بطشه وذلك في قوله: "وأخذت القوة الوحيدة تزداد بطشاً وقسوة على من لا يمشي في ركابها، لدرجة أن العالم تحول إلى دول تابعة."[34] ولكن المتأمل في تاريخ نشر الرواية يرى أن "معظم الليبراليين ، حتى اولئك الذين كانوا ينتقدون الإجراءات الامبريالية الأمريكية في السابق، دافعوا عن إدارة بوش في الحرب على الإرهاب ووافقوا على التضحية ببعض الحريات المدنية من أجل الأمن الداخلي...تمكنت الشرطة من الاعتقال التعسفي لأي شخص يشتبه بضلوعه في الإرهاب."[35] وفي هذا السياق يقول عمران في روايته : "هل بدأ العصر الذي تحدّثت عنه أمينة بعد الحادي عشر من الشهر التاسع... العصر الذي سيصبح فيه الوجود الإنساني مهدداً برمته، وخاضعاً لسيطرة قوة غاشمة، يتحكم فيها مهووسون باستعباد الشعوب وإذلالها إما أن تستسلم لهم وتصبح عبداً، وإمّا أن تصبح على قائمة الإرهاب، وهذا يعني أن عقابهم سيطالك في أي مكان وزمان."[36]

كذلك في ترسيم صورة عنف الآخر وخشونته، يصور المؤلف أن الحكومة الأمريكية لا ترحم أحدا، حتى وإن كان ذلك شعبها. والدليل على ذلك هو أن هجمات الحادي عشر من سبتمبر عام 2001م، كانت عملية نفذتها الأجهزة الأمريكية وضحت بالناس في بلادها من أجل مصالحها الاقتصادية وهذا ما يوضحه في السياق الآتي:

"– قبل تلك العمليات بسنوات كانت هناك برامج حول تطوير التحكم بالطائرات الضخمة وتوجيهها عن بعد، كلفت تلك البرامج أموالاً طائلة.. حتى تأكد للقائمين عليها أنها ناضجة تماماً

– تقصد أن العمليات نفذتها أجهزة داخلية؟

– نعم درست كافة الاحتمالات.. والنتائج المترتبة على ذلك.. والوقت اللازم لذلك، وردود الأفعال، والتهم الجاهزة

–إذن نفذت العملية بدقة مدهشة، واتهم بها أناس من الخارج.. ولكن لماذا؟ هل ضحوا بالناس في بلادهم من أجل أهداف معينة؟

– بالطبع من أجل خدمة مصالح إقتصادية حيوية."[37]

فهي تقتل وتفتك من في طريقها ومن ليس في طريقها، تتسلى بترويع الناس والتحكم بالعباد. وكذلك لإظهار ظلم "الآخر" وقساوته يلجأ الكاتب إلى ترسيم صورة المضطهدين ويبين بأنها أصبحت أشكال مهزومة بملامح باهتة في قوله: "القوة الوحيدة الظالمة مازالت في انتشارها في البلدان، تقتل من يحلو لها، حتى تحولت أشكال الناس في الدول التي تسمى نامية، إلى أشكال مهزومة بملامح باهتة."[38] وكأنه يريد أن يقول: يكفي في التعبير عن ظلم الظالم، أن المظلوم صار هكذا؛ كما يلجأ إلى ترسيم صورة الإنسانية وبأنها أصبحت مهانة ذليلة مستعبدة لطقمة تتحكم بالرقاب والعباد في قوله: "كان رأس النظام العالمي الجديد يلهو ويتسلّى بالقتل والتدمير وترويع الناس، ويرسم صورة للمستقبل تكون فيها الإنسانية مهانة ذليلة مستعبدة لطقمة تتحكم بالرقاب والعباد."[39]

كما نلحظ أن عمران في ترسيمه لصورة الآخر القاسي، ينسب كل عمل إجرامي يُرتكب في العالم إليه، من الغارات والقصف الصاروخي إلى دمار المرافق الحيوية وحتى انتشار الأمراض في قوله: "ألقوا قبل الظهر في نحو الحادية عشرة قنبلة انفجرت بصوت قوي قرب النهر، دون أن يسبب انفجارها أذى مباشراً، ولكن الهواء بدأ يحمل رائحة غريبة أشبه برائحة تفسخ الجثث.. ومع الأسف حين اكتشفنا أن الروائح ليست سوى فيروسات محمولة على مواد متطايرة.. كان عدد كبير من الناس قد بدؤوا يشعرون بالدوار والغثيان."[40] وبهذا تتجلى صورة القساوة بأشكالها وألوانها المختلفة في الرواية ويظهر للمتلقي أن الآخر الأمريكي لا يكتفي بالقتل والدمار فقط ليشفي غليل صدره بل يتم طلبه على أكثر من هذا وهو الإضعاف والإمهان عقلياً وجسدياً.

2-3- الآخر السارق :

التاريخ هو هوية المجتمع، و"الهوية تكمن في عقيدته وجنسه وأرضه ولغته وثقافته وحضارته وتاريخه، والروح المعنوية والجوهر الأصيل للكيان الوطني والمصالح المشتركة، وبهذا نرى أن الهوية تتنامى ولاتتمثل فقط في اللغة أو العرق أو الحيز الجغرافي، فهي أبعد من هذا."[41] إذن محو الذاكرة التاريخية لأمة يعني حذف هوية تلك الأمة. في الاستعمار الكلاسيكي شاهدنا نظريات متعددة فيما يتعلق بحذف هذه الذاكرة؛ منها ما ذكره ماركس سنة1853 وقال: إن الهند ليس لها تاريخ ومن مآثر الاستعمار البريطاني أنه سيدخل الشبه القارة الهندية في التاريخ الأروبي.

يستخدم عمران لفظ "السرقة" لتجسيد صورة حذف الذاكرة التاريخية والدلالة على فظاظة الغاصب وشراسته الذي يسعى لإزالة هوية أمة ما ويعبر عن ذلك تعبيراً دقيقاً بقوله: "سرقة الآثار من بلادنا مستمرة منذ زمن بعيد، وسرقة المخطوطات والوثائق وصلت إلى حدّها المخيف، لم يبق عندنا ما يربطنا بالتاريخ سوى الذكريات، بعد أن دمرت الطائرات بقايا الآثار المهدمة.. يريدون محونا من الخارطة البشرية، ومسح تاريخنا وحضاراتنا، وإنتاج أجيال مدجنة من الناس الذين فقدوا الذاكرة والشخصية..."[42] وكما يلاحظ أنه لايكتفي بذكر هذا التعبير بل

يسعى ليميط اللثام عن وجه هذا السارق، فيكمل قوله بما يبغاه وما يهدف اليه من هذه السرقة، كي يظهر للقارئ حقيقته ويكشف نواياه الشريرة.

2-4- الآخر الفاتن :

اتّبعت القوة العظمى سياسة فرّق تسُد في البلدان الشرقية، حسب تعبير المؤلف بهذه العبارات: "كوكب مضبّع بالأحقاد.. فيه قوة باغية تشجع أنظمة عنصرية سافلة لا تؤمن بالإنسان وتنشر سياسة البطش والمجازر.. وحكى مديح عن الحروب الإقليمية التي يشعل أوارها خبراء الحروب في القوة العظمى حروب بين بلدان تنهك الانسان والاقتصاد والثقافة.. وتقتل التراث والأحلام."[43]

فالفتنة وإثارة النعرات الطائفية أيضا من الصور السلبية التي صورها الكاتب للآخر في روايته وبرزها، ومن ذلك قوله: "قرأ قاسم عناوين بارزة عن الحرب ضد الإرهاب، بين الشرق والغرب.. بدا أن القوة العظمى تثير النعرات بين فئات متطرفة، لتبدأ الحروب الصغيرة بين الدول، حيث تتدخل في الوقت المناسب فارضة شروطها في تعميم صور القوارض الجديدة.. لتزيد من قبضتها على العالم."[44] كما يوضح للمتلقي أهداف الحكومة الأمريكية ويؤكد على أنها تثير النعرات لفرض هيمنتها على العالم وتأسيس سلطات تابعة لها في البلاد الإسلامية.

2-5- الآخر الاسرائيلي:

يشير عمران إلى الآخر الإسرائيلي في روايته وهو لم يذكر اسمه، بل يدلّ عليه بعبارات نحو قوله: "فالجواز دبلوماسي خاص، والاسم ينتمي إلى أسماء أناس من جماعة تعتبر هي الأقرب في العالم إلى القوة العظمى.. وقد أقاموا دولتهم المغتصبة فوق بقعة من الأرض تعتبر من أقدس الأماكن في العالم.. وطردوا شعب تلك الأرض، ونكّلوا به واستباحوا أرضه وأملاكه، و قتلوا الملايين منه."[45] وكأن الكاتب يريد يلفت انتباه القارئ إلى ما ارتكتب هذا الآخر من جرائم بدلاً من التركيز على اسمه وعنوانه، بينما ورد ذكر فلسطين على أنها تعتبر من أقدس الأماكن في العالم.

و في إشارة أخرى إلى الآخر الإسرائيلي في الرواية أيضاً لم يذكر اسمه ويكتفي الروائي بذكر أعماله الوحشية تحت عنوان الغزو العنصري وينسب صفة الجزّار اليه الذي لايرحم ولا شفقة لديه، في قوله: "كانت سالي تتفرج على التلفاز، وهو يعرض مقاومة أبطال فلسطين في الدفاع ضد الغزو العنصري، ثم عرضت المحطّة صوراً لبعض الجثث المتفحمة، وقد أطلق الجزّار قذائفه الوحشية عليهم، من صواريخ وقنابل مدمّرة وقنابل حارقة وظل يقصف ويقصف حتّى دمّر البيوت وسوّاها بالأرض دون أن يكترث لساكنيها، وكأنما راق له الدم الذي غطّى الشوارع فانكبّ يلعقه متشفياً، وقد وصل إحساسه المتوحش الوضيع إلى ذروته."[46]

واللافت للإنتباه أيضا في هذه العبارات، هو أن المؤلف بينما يصور الغاصب الإسرائيلي بتلك الصفات السلبية، يعرفه كذلك بأنه هو الأقرب في العالم إلى القوة العظمى وأن من ينتمي لهذا البلد يكون سهل القبول في أي مكان إلّا بلاد معدودة ومن ذلك إشارته إليه عندما حاول الدكتور قاسم الهروب من غوانتانامو بجواز اسرائيلي مزيف، في قوله: "كانت الشخصية الجديدة لقاسم سهلة القبول في أي مكان، ولكنه كان يعرف أن عليه إخفاءها حين يختلط بالناس في بلده.. فالناس لن يقبلوا برجل يحمل هذا الاسم، وينتمي إلى دولة تعتمد البطش والوحشية وامتهان كرامة الإنسان."[47] وبهذا يؤكد على أن الشعب العربي لن يقبل بأي إسرائيلي ولا بما يفعله من الهمجية والوحشية وامتهان كرامة الشعب الفلسطيني.

3- صورة الأنا في الرواية :

إن الأنا برزت في رواية الأزمان المظلمة من منظورين؛ أي من منظور الآخر الأمريكي ومن منظور الذات العربية المسلمة. وعند الذات تنقسم إلى قسمين، صورة الشعب العربي المسلم وصورة الحكام والسلطات العربية. فالكاتب يفرّق ما بين الإثنين.

3-1- الأنا من منظور الذات :

3-1-1-(صورة الشعب العربي المسلم)

ظهرت صورة الشعب العربي المسلم في رواية الأزمان المظلمة بصورة إيجابية تحمل نظرة إعجاب كما ينسب إليها الكاتب، نسبة عالية من الذكاء والوصول إلى أعلى درجات العلم وهذا ما يوضحه في المقطع الاتي: "قال هاني: نحن شعب يملك نسبة ذكاء عالية يا مولاي ، قال رئيس الوزراء: نعم وكل من يذهب للدراسة في الخارج، يبدع بسرعة ويبتكر ويخترع ويقدم انجازات كبيرة "[48]

كما يؤكد على ذلك في قوله: "شعر بالإعجاب بهؤلاء الشباب الذين لا يترددون في تقديم حياتهم دفاعاً عن الوطن ولمقاومة المحتلّ البغيض الذي يقوم بأعمال لم يسبق لها مثيل في التاريخ.. شبان وشابات في عمر الورد، قدموا أمثلة بقنابلهم الاستشهادية لنضال الشعوب المقهورة. شعر بالدموع تطفر من عينيه، وهو يتأمل الصور، هذه الطفرات المباركة، هي الأمل بمقاومة خارقة توقف الظلم الممتد على شعوب الأرض."[49] ولعلّ الشعور بالإعجاب، الذي ينسبه الروائي إلى الدكتور قاسم في هذا المقطع، هو بالذات شعوره عندما يرى أبناء بلده المتفوقين علمياً، يضحّون بأنفسهم ضد العدوّ المحتل دفاعاً عن الوطن فيكون فخوراً بهم. وبينما تشوه صورة الأنا والآخر بتأثير الحروب وبتأثير وسائل الإعلام، "التي يتحكم في أغلبها الآخر الصهيوني (بفضل المال الذي يستثمره في هذا المجال)،"[50]

يحاول عمران تصليح صورة الشرق والإسلام في روايته ويذكّر المتلقي بأن الحضارة العربية الإسلامية قدّمت الكثير من الإبداعات للبشرية وهذا ما يبرزه في السياق الآتي: "قابلت أحد الشيوخ المتنورين، فحكى لي عن الإختراقات التي حدثت في الفكر الإسلامي لتشويه هذا الفكر الذي قدّم للبشرية إبداعاته العظيمة خلال ثمانية قرون، بدأت في الثامن الميلادي و استمرت حتى السادس عشر منه، اختراقات من قبل فقهاء يروجون للسلام والتنازل عن الحقوق والتنديد بالعمليات الاستشهادية، واختراقات أخرى من قبل تنظيمات أصوليّة تنفذ أوامر قتل باسم الحفاظ على السلف، وهي حقيقة تنفذ ما تريده القوة العظمى، لتشويه الصورة السمحة الحقيقية للإسلام"[51] كما يحذر من الإختراقات التي حدثت في الفكر الإسلامي من قبل فقهاء يروجون للسلام والتنازل عن الحقوق والتنديد بالعمليات الاستشهادية وبهذا يفرّق ما بين

العمليات الاستشهادية التي يقوم بها الشباب دفاعاً عن الوطن والعمليات التفجيرية والقتل الذي تقوم به التنظيمات الأصولية باسم الحفاظ على السلف، وهي التي يراها في الحقيقة تنفذ ما تريده القوة العظمى.

3-1-2- (صورة الحكام و السلطات العربية) :

كانت تلك رؤية الكاتب بالنسبة إلى الشرق والإسلام، ولكن رؤيته بالنسبة إلى الحكام في الدول الشرقية تختلف تماماً. فهو لا يراهم إلّا أتباعاً للقوة العظمى، تحمي المنافق وتحاصر المبدع في قوله: "انظر إلى السلطات الحاكمة في عالمنا العربي، وتأمل جيداً، إنها سلطات تحمي المنافق وتحاصر المبدع."[52]

والجدير بالإشارة هنا، أن عمران اختار للسلطات العربية في روايته اسم "قارض"، وهذا ما يوضحه في السياق الآتي على لسان مديح، صديق الدكتور هاني، عندما سأله الدكتور عما حدث له مع المراسل الأجنبي ورد عليه بقوله: "قدمت له نفسي مراسلا لأحدى الصحف الأمريكية المعارضة لحرب العدل التي شنت في تشرين أول اكتوبر (2001) ومازالت مستمرة حتى الآن.. وقد انشدّ (ستارك) وهو اسمه إلى حديثي ففتح لي قلبه وحكى لي أسراره مع القوارض التي أجرى لقاءات مع كل منها، كانت مثيرة للعجب.. قارض (1) وقارض (2) وقارض (3) وقارض (4)... وغيرهم كثير، ممن نصبتهم القوة العظمى حكاماً على شعوبهم، لنشر الديمقراطية كما تفصّلها القوة العظمى، للإستسلام، والخنوع لكل قراراتها..."[53] القارض "نعت تعريفيّ يطلق على كلّ حيوان ينتمي إلى رتبة القواضم كالجرذان وغيرها."[54] والدليل في التشبيه هو أن هذه الحيوانات لا تقرض لكي تتغذى فقط ولكن عليها أن تفعل ذلك لكي تحفظ تآكل قواطعها الأمامية فهذه الأسنان تنمو باستمرار طوال حياة الحيوان، وأن السلطات أيضاً نهمة، شرسة لا تشبع ولا تقنع في طموحاتها وهي تضحّى بأبناء شعبها وتتبع القوات العظمى لكي تحفظ حاكميتها وأموالها على حساب الشعب وأبناء بلدها. كما يعبر الروائي عن ذلك بقوله: "كيف يجري التخطيط لإقامة نظام تابع يرأسه قارض مدجّن(مفبرك) ليحم شعبه بالتجويع والقهر والاستلاب، وزرع نماذج من الأتباع الذين يهللون ويصفقون ويطنبون في

مدحه، ويدبجون الكتب والمقالات والبرامج الخاصة في مدحه وتصويره كالرجل المناسب الذي أتى لإنقاذ البلد من الضياع.. نماذج من الأتباع الذين يستغلون مناصبهم لتجميع الأموال والتحكم بالعباد على أرضيّة من النفاق والفساد غير المحدود."[55] وبهذا يؤكد على تابعية السلطات العربية بصفة "المدجّن" وهي صفة للحيوان الأليف؛ بمعنى أنّها ألفت القوة العظمى وأصبحت تابعةً لها، وهي تتحكم بالعباد على أرضية من النفاق والفساد واستغلال مناصبها لتجميع الأموال.

3-2- الأنا من منظور الآخر :

تشكلت الهوية الغربية عبر التقسيم العنصري، و"ثمة مكون آخر للهوية الغربية، بالإضافة إلى التقسيم العنصري، هو فكرة العدو، ويبدو أن الشرق هو أكثر الأعداء حضوراً في وعي الغرب، في الماضي والحاضر، لهذا مسخت صورته إلى مجموعة من الثوابت التي تناقض الثقافة الحديثة، مما يعلي شأن الأنا الغربية على حساب الآخر (الشرقي) الذي لا يملك سوى ثوب التهديد والإرهاب."[56]

لطالما كانت هناك مخاوف متبادلة بين الشرق والغرب، "إن مخاوف الغرب بأنه مهدد من قبل العالم الإسلامي، وهي مخاوف يتم تشجيع ترويجها عن قصد، تقابلها مخاوف الشرق الأوسط من التهديد المستمر من قبل الغرب. فإذا استعرضنا تاريخ القرن العشرين بالذات والظروف السياسية الخاصة بسياسية القوة، سنجد أن الخوف في الحالة الثانية له ما يبرره، لأن التهديد فيها حقيقي. ويصاحب الإحساس بالتهديد المادي، إحساس آخر قوي بالتهديد من قبل الثقافة الغربية."[57] وفيما يتم التهديد المادي بالنار والسلاح، يتم توجيه التهديد الثقافي والتمثيل عبر وسائل الإعلام وهي ليست متاحة لأي ثقافة كانت، كما يقول سعيد: "إن الثقافة تكون قادرة على التمثيل حين تملك القوة ووسائل فرض الهيمنة، ويكون لسان حال هذه الثقافة هو: "نحن نسيطر لأننا نملك القوة (الصناعية، والتقنوية، والعسكرية، والأخلاقية)؛ وهم لا يملكونها، ولذلك فهم ليسوا مسيطرين؛ إنهم دنيّون ونحن فوقيّون."[58]

وعلى هذا يكون التمثيل إذن "مؤشراً على ما تتمتع به ثقافة من الثقافات من قوة وغلبة ومقدرة على الهيمنة."[59] كما شاهدنا في السنوات الأخيرة، "بعد أن ذاع النموذج الغربي من خلال سيطرة الغرب على أجهزة الإعلام مما أنشأ في كل وعي لاأروبي ولدى كل شعب خارج أروبا ظاهرة "التغريب"... حيث يكون فيه الغرب نموذج لحضارة الإنسان، وحقوق الإنسان والمواطن والنظام الديمقراطي البرلماني التعددي."[60] والشرق نموذج لبدايات الوعي الإنساني وتجاهل حقوق الإنسان ودكتاتورية الحكام على ما هو معروف في الاستبداد الشرقي. وفيما يخص الإدارة الأمريكية الحالية فإنها "لم تجد صعوبة في زرع صورة نمطية في عقول الأمريكيين، قوامها التلازم بين الإسلام والإرهاب. وذلك لأن الأرضية كانت معدة مسبقاً عبر السينما، ووسائل الإعلام والإتصال المختلفة. ... فمثلاً تقوم هوليوود منذ تأسيسها، بتشويه صورة العرب والإسلام، بتركيزها على صورة العربي المسلم، البدوي، الثري، المزواج، والعدواني، والغدار الذي لايؤتمن."[61]

كما يبرز عمران، ذلك في روايته والتي نجدها باستعمال لفظ "التابع" كصفة للإعلام في قوله: "الإعلام التابع يظهر العكس، يظهر الطمأنينة والراحة في قتل الناس الذين سمتهم القوى العظمى بالأشرار.. مع أن الأبرياء من ضحايا الدمار كان عددهم كبيراً كبيراً."[62] ليدلّ بذلك على أن وسائل الإعلام ليس لها خيار للتحكم فيما تريد ولكن القوة العظمى تقول لها ما تفعل وهي تنفذ. وكذلك تكميلاً لصورة وسائل الإعلام والتحكم بها من قبل الولايات المتحدة، يضيف الكاتب أن القوة العظمى تقوم بتهديد وتفجير كل من حاول فضح ما يجري وإظهار الحقيقة وذلك في قوله: "وسمعت أصوات انفجارات هائلة وانقطع البث فجأة وظهر أن تلك المحطة المجهولة ضربت، لأنها حاولت فضح ما يجرى.. وخرج أحد العسكريين يلصق التهمة بأعداء مجهولين يحاولون تشويه ما تقوم به القوى العظمى من خدمة للإنسانية."[63]

كما يؤكد على ذلك في رواية مديح، عند ما نفذ إلى منطقة اكتشف فيها مقابر جماعية وأراد أن يلتقط صوراً وينشرها عبر المحطات الإخبارية فحدث ما حدث له وها هي حكايته على لسانه عندما سأله الدكتور هاني عما جرى له: "آه.. إنه حديث طويل.. أنا صحفي

مشاغب كما تعرف.. يبدو أنني تجاوزت حدودي حين نفذت إلى منطقة اكتشفت فيها مقابر جماعية تضم نحو(2500) جثة.. أحضرت مصورين وإخباريين.. ولكن قوات خاصة حاصرتنا، وكسرت مصوّراتنا، ومزقت أوراقنا.. ثم أطلقنا قائدهم بعد أن اعتقلنا ليومين، وهو يحذرنا من أن نتكلم ولو بكلمة عمّا رأيناه."[64]

من الواضح أن الصورة التي يحملها الغرب عن الشرق، لا تبعد عن ناظري المؤلف وهو يشير إليها في روايته لقاسم عندما رأى رجلاً بملامح شرقية ولم يسمح له بالصعود إلى الطائرة الأمريكية بينما أنه كان مواطن أمريكي ويؤكد على ذلك بقوله: "–أنا مواطن من هذه البلاد ومن حقي أن أتحرّك بحريّة" ولكن الآخر الأمريكي الذي يبدو أنه كان أحد الموظفين في الطائرة يقول: "اسمه (عبدالله).. واضح أنه إرهابي"[65] وهكذا تتضح عنده إرهابية (عبدالله) فقط عن طريق إسمه الدال على دينه الإسلام.

إذن صورة الشرق في وعي الغرب "هي أنه يمثل بدايات الوعي الإنساني، الإنسانية في مرحلة الميلاد، بلاوعي ولا إرادة ولا عقل، مجرد كائن عضوي أشبه بالكائنات الطبيعية الجامدة أو الحية على أكثر تقدير... وهو موطن السحر والدين، والخرافات والأوهام."[66] ويضيف الروائي على هذا التمثيل صور أخرى كالخيانة، والفساد الأخلاقي مع النساء، والإرتشاء وغيرها من التهم التي أصدرتها المحكمة الأمريكية بالنسبة إلى الدكتور قاسم كممثل للشرق في روايته، ويورده في المقطع الآتي:

"–أخطر الجرائم التي ارتكبها أنه أساء استخدام الأمانة، أمانة السلطة، فحين عهد إليه باستلام موقع هام له علاقة بحياة الناس وتطورهم، له علاقة بالأمن والحماية وحلّ المشاكل الصحية المعقدة.. بدأ يرسل الموظفين لتنفيذ عمليات قتل وإبادة وتلويث بيئي،...

–أرجوا أن تسمح لي بإحضار الشهود:

وشاركت (هنا) في شهادتها، وتحدثت طويلاً عن علاقته بسالي، وعن لياليه التي كان يقضيها مع نسوة اقتنصهن مستغلاً مركزه. كان يبدو أنها تحقد عليه كثيراً

–هذا الرجل كان موظفاً رديئاً استغل مركزه لمتعته الخاصة.. آه يا سيدي كم من نساء مصونات، وزوجات مخلصات، أدخلهن إلى دائرة متعته، رغماً عن أزواجهن وعوائلهن

وأدخل مفيداً صديقه، و شعر قاسم بذهول ماذا فعل لمفيد حتى يشهد ضده؟ كان يعتبره صديق عمره ... تابع مفيد:

–طلبت منه توظيف ابنتي فطلب مبلغاً كبيراً من المال.. طلب رشوة مني يا سيدي"[67] لقد رسم الكاتب بريشته متفنّناً، محكمة الدكتور قاسم الذي اتُهم وحُكم عليه بالعقوبة دون إعطائه أيّ فرصة للدفاع عن نفسه، وكأنه أراد برسمه هذا أن يأخذ بخيال المتلقي إلى الصورة التي يحملها الغرب في وعيه عن الشرق واتهامه بالإرهاب ومنها إلى الحملات التي شنّتها الولايات المتحدة على الدول الإسلامية بحجة القضاء على الإرهاب، بينما قُتل الآلاف من الأبرياء دون إعطاء أي فرصة للدفاع عن أنفسهم.

خاتمة :

من أهم النتائج التي وصل اليها البحث يمكن الإشارة إلى ما يلي:

1. إن الأحداث التي كان يمر بها العالم، بعد هجمات الحادي عشر سبتمبر 2001م، وما تلتها من حروب ودمار، كانت الحافز الرئيس للكاتب على انتشار روايته من حيث أنه استوحاها من الحروب التي شنتها الولايات المتحدة على دولة أفغانستان والعراق بحجة القضاء على الإرهاب.

2.شكلت الوقائع التاريخية والسياسية صورة سلبية بالنسبة للآخر الأمريكي في الرواية، لذا لا يرى القارئ فيها إلا صورة ظالمة، وقاسية، وقاتلة، تحبّ السلطة والتملك، واستعباد الشعوب. ولكي يدرك القارئ مدى سلطوية الآخر وفرض هيمنته، يبين الكاتب أن الآخر يفرض هيمنته بشتى الطرق، أي بالقهر، والقتل والحصار الإقتصادي كما يملك خبراء في أي منهم.

3. كذلك في ترسيم صورة عنف الآخر وقساوته، يصور الكاتب أن الحكومة الأمريكية لا ترحم أحدا، حتى وإن كان ذلك شعبها. والدليل على ذلك هو أن هجمات الحادي عشر من سبتمبر عام 2001م، كانت عملية نفذتها الأجهزة الأمريكية وضحت بالناس في بلادها من أجل مصالحها الاقتصادية.

4. ظهرت صورة الآخر الإسرائيلي بصفة الجزار وذكر أعماله الوحشية في الرواية، كما وصفه الروائي كأقرب صديق في العالم إلى القوة العظمى وأن من ينتمي لهذا البلد يكون سهل القبول في أي مكان إلّا بلاد معدودة وبهذا يؤكد على أن الشعب العربي لن يقبل بأي إسرائيلي ولا بما يفعله من الهمجية والوحشية وامتهان كرامة الشعب الفلسطيني.

5. إن الأنا برزت في الرواية من منظورين؛ أي من منظور الآخر الأمريكي ومن منظور الذات العربية المسلمة. تتضح صورة الأنا عند الآخر الأمريكي، مهددة إرهابية، وعند الذات تنقسم إلى قسمين، صورة الشعب العربي المسلم وصورة الحكام والسلطات العربية. فالكاتب يفرق مابين الإثنين؛ يرى الشعب من منظر إيجابي وينسب إليه نسبة عالية من الذكاء والوصول إلى أعلى درجات العلم، ولكن صورة الحكام والسلطات العربية برزت سلبية وتابعة للقوة العظمى، تضحى بابناء شعبها من أجل الحصول على حاكميتها واستمرار سلطتها.

الهوامش:

[1].هلال محمد غنيمي، الأدب المقارن، نهضة مصر للطباعة و النشر، القاهرة، 2008، ص.333

[2]. شبلي إبراهيم خليل، الذات و الآخر في الرواية السورية، دار فضاءات، عمان، 2010، ص.111

[3]. باجو دانيل هنري، الأدب العام و المقارن، تر: غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب

دمشق، 1997، ص.91

[4].موريسون طوني، صورة الآخر في الخيال الأدبي، تر: محمد مشبال، منشورات مشروع البحث النقدي، فاس، 2009، ص.46

[5].حمداوي جميل، صورة الآخر في الخطاب الروائي العربي (مقاربة صورولوجية)، دار الريف، الناظور–المملكة المغربية، 2020،ص.6

[6] .باجو دانيل هنري، الأدب العام و المقارن، ص.91

[7].حمود ماجدة، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000، ص.119

[8].بوزيدة عبد القادر، صورة الآخر و دلالاتها في الدراسات المقارنة، نشرية اللغة و الأدب العدد26، 1437، ص.202

[9].الحربي صالح بن عويد، دراسات صورة الآخر في الأدب العربي و أثر إدوارد سعيد، مجلة جامعة طيبة للآداب و العلوم الإنسانية، العدد20، 1441، ص.164

[10].كاظم نادر، تمثيلات الآخر(صورة السود في المتخيل العربي الوسيط)، دارالفارس، عمان، 2004، ص.19

[11]. هلال محمد غنيمي، الأدب المقارن، ص.333

ص.333

[12].بيشوا كلود؛ أندرية م.ر.سو،الأدب المقارن، تر: أحمد عبدالعزيز، مكتبة الأنجلو المصرية، 2001، ص.144

[13].الحربي صالح بن عويد، دراسات صورة الآخر في الأدب العربي و أثر إدوارد سعيد، ص.164

[14].بوعلي عبدالرحمن، تمثلات صورة الآخر العربي و الإفريقي في الأدب الفرنسي، مجلة جيل الدراسات الأدبية و الفكرية، العدد23، 2016، ص.10

[15] باجو دانيل هنري، الأدب العام و المقارن، ص.92

[16].فتحي ابراهيم، معجم المصطلحات الادبية ،المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، تونس، 1986، ص.47

[17] . حمود ماجدة، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000

ص.109

[18]. كاظم نادر، تمثيلات الآخر، ص.20

[19]. حمداوي جميل، صورة الآخر في الخطاب الروائي العربي، ص.32

[20].البازعي سعد؛ الرويلي، ميجان، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2002، ص.21

[21]. حنفي حسن، مقدمة في علم الإستغراب، الدار الفنية، القاهرة، 1991،ص.695

[22]. سعيد إدوارد، الثقافة و الإمبريالية، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت،2014، ص.171

[23]. سعيد إدوارد، الإستشراق، تر: محمد عناني، رؤية للنشر و التوزيع، القاهرة، 2006، ص.58

[24]. حمداوي جميل، صورة الآخر في الخطاب الروائي العربي،ص.43

[25]. عمران طالب، الأزمان المظلمة، دار الفكر، دمشق، 2003، ص.385.

[26]. سعيد إدوارد، الإستشراق، ص.47.

[27]. عمران طالب، الأزمان المظلمة، ص.403.

[28]. شبابى، مهرشاد. أثر إنهيار الإتحاد السوفيتي على السياسة الإقليمية للولايات المتحدة، مجلة "سياست دفاعى"، ش68، 1388، ص.53.

[29]. عمران طالب، الأزمان المظلمة، ص.402.

[30].هاروي ديفيد، الأمبريالية الجديدة، تر: حسين رحمتي، تهران، نشر اختران،1397هـ.ش، ص.51.

[31]. عمران طالب، الأزمان المظلمة، ص.208.

[32].المصدر نفسه، ص.281.

[33].المصدر نفسه، ص.403.

[34].المصدر نفسه، ص.131.

[35]. هاروي ديفيد، الأمبريالية الجديدة، ص.177.

[36]. عمران طالب، الأزمان المظلمة، ص.259.

[37]. المصدر نفسه، ص.159.

[38].المصدر نفسه، ص.119.

[39].المصدر نفسه، ص.202.

[40].المصدر نفسه، ص.347.

[41]. غشير، سامية؛ عقيلة شنيقل. إشكالية الأنا و الآخر في روايات ياسمينة خضرا، مجلة مدارات في اللغة و الأدب، العدد4، 2020، ص.199.

[42]. عمران طالب، الأزمان المظلمة، ص.282.

[43]. المصدر نفسه، ص.357.

[44]. الصدر نفسه، ص.370.

[45]. الصدر نفسه، ص.373.

[46]. المصدر نفسه، ص.256.

[47].المصدر نفسه، ص.373

[48].المصدر نفسه، ص.426

[49].المصدر نفسه، ص.370

[50]. حمود ماجدة، إشكالية الأنا و الآخر (نماذج روائية)، عالم المعرفة، الكويت، 2013، ص.18

[51]. عمران طالب، الأزمان المظلمة، ص.398

[52]. المصدر نفسه، ص.282

[53]. المصدر نفسه، ص.399

[54]. المنجد الوسيط، دار المشرق، بيروت،2003،ص.847

[55] . عمران طالب، الأزمان المظلمة، ص.399

[56]. حمود ماجدة، إشكالية الأنا و الآخر، ص.22

[57].عمارة محمد، صورة الإسلام في التراث الغربي، تر: ثابت عيد، نهضة مصر، قاهرة، 1999، ص.50

[58]. سعيد إدوارد، الثقافة و الإمبريالية، ص.171

[59]. كاظم نادر، تمثيلات الآخر، ص.41

[60] . حنفي حسن، مقدمة في علم الإستغراب، ص.774

[61]. السيد، غسان. صورة الغرب في الأدب العربي؛ رواية فياض لخيري ذهبي نموذجاً، نشرية جامعة دمشق للآداب و العلوم الإنسانية، العدد3و4، 2008،ص.92

[62]. عمران طالب، الأزمان المظلمة، ص.160

[63]. المصدر نفسه، ص.161

[64].المصدر نفسه، ص.356

[65].المصدر نفسه، ص.368

[66]. حنفي حسن، مقدمة في علم الإستغراب، ص.774

[67] . عمران طالب، الأزمان المظلمة، ص.231